

" إعداد المترجم من روى ابن خلدون في اكتساب اللغة "

حلقة دراسية قدمها أ. د. طالب القرشي

بتاريخ 2011 / 10 / 6

(مستهل العام الثقافي للكلية للعام الدراسي 2011 / 2012)

اشتهر عبد الرحمن بن خلدون، كما هو معروف، عالما إجتماعيا عرض في مقدمته أوجها متنوعة من الحياة الاحتماعية للعرب ما زالت تحظى باهتمام الباحثين حتى هذا اليوم. وفي نفس الوقت أفرد جانباً من اهتمامه لعملية اكتساب لغة ثانية وتعلمها تشكل منهاجاً تكاملياً تناوله اللغويون الغربيون بشكل نظريات مجتزأة لا تشكل منهاجاً متكاملًا في هذا الشأن. ويقول احد الباحثين في هذا المجال ؟ ان ابن خلدون: "فضلا على انه فلسف علم الاجتماع، فانه مهد للسانيات التربوية؛ ففي مخزون "مقدمته" استطرادات ثرية عن نظرية التحصيل اللغوي، وقد لا اكون مبالغاً اذا قلت ان تلك الاستطرادات تحتاج الى بحث مستفيض يستقصي جميع جوانبها" (المسدي: 192).

يعتقد ابن خلدون أن اللغة تشكل ملكة طبيعية عند الانسان يكتسبها ويتعلمها كباقي الملكات بقوله: "إلا أن اللغات لما كانت ملكات كما مر، كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات" (مقدمة: 753)؛ وقد

سبق ابن خلدون العلماء الغربيين في التفريق بين الملكة اللغوية وصناعة اللغة العربية التي يمكن تطبيقها على جميع اللغات؛ فهو يقول: "من هنا يعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية، انها مستغنية عنها بالجملة.. ذلك أن صناعة العربية هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة. فهو علم بكيفية وليس نفس كيفية" (مقدمة : 754). وهذا الرأي هو قريب لما ذهب اليه تشومسكي في العصر الحديث في تعريفه للكفاية اللغوية (Linguistic Competence) والاداء اللغوي الفعلي (Competence Performance)، أي أن الكفاية اللغوية بالنسبة لتشومسكي هي المعرفة الضمنية اللاشعورية لقوانين اللغة التي تجعل الانسان قادرا على انتاج جمل وفهمها (Chomsky, N.

Ibid). ويبيد ابن خلدون دليلاً حياً على هذا التفريق الذي استقرأه بقوله: "وكذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماً بتلك القوانين، اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذي مودته او شكوى ظلامه او قصد من قصوده، أخطأ فيها الصواب وأكثر من اللحن، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود فيه على أساليب اللسان العربي. وكذا نجد كثيراً ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظور والمنثور، وهو لا يحسن اعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور ولا شيئاً من قوانين صناعة العربية" (مقدمة: 754).

أما فيما يخص اكتساب اللغة فيؤكد ابن خلدون على دور البيئة اللغوية التي يترعرع وسطها الفرد ويسمع تعابير مجتمعه فيقول أن الانسان: "يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها، فيلقتها أولا ثم يسمع التراكيب فيلقتها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى ان يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم" (مقدمة: 747). وهنا، على ما يبدو، يؤكد ابن خلدون على ان السمع هو ابو الملكات اللسانية ويجب ان يحتل مقاما رئيسا في تعليم اللغات المختلفة، لاسيما في عصرنا من خلال استخدام المختبرات الحديثة وتكثيف مادة الصوت والمحادثة وخلق بيئة لغوية اصطناعية.

أما فيما يتعلق بتعلم اللغة الثانية فإن ابن خلدون يرى قصورا فيها مهما بلغ متعلمها جهودا في اتقانها بسبب سبقها باللغة الام بقوله: "إن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل، فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة" (مقدمة: 754) وهذه الفكرة توصل لها الباحث اللغوي المحدث (Selinkker, 2001:315) عن "اللغة البينية او الوسيطة" (Interlanguage) التي ترى ان متعلم اللغة الثانية سيحمل صفات من لغته الام ولذلك فان تعلمه للغة الثانية سيثوبه النقص. ويورد ابن خلدون هنا مما لمسه من تعلم الاعاجم للغة العربية التي سبقت بملكة لغاتهم قائلا: "وانظر من تقدم له شئ من العجمة، كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا. فالأعجمي الذي سبقت له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي، ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه. وكذلك البربري والرومي والإفريقي قل أن تجد أحدا منهم محكما لملكة اللسان العربي. وما ذلك الا لما سبق الى السننهم من ملكة اللسان الآخر" (مقدمة: 764). ومع ذلك، لا يعمم ابن خلدون رأيه على ثنائي اللغة أو متعددي اللغة الذين عاشوا في طفولتهم في بيئة متعددة الالسن بقوله: "من كان على الفطرة كان اسهل لقبول الملكات واحسن استعدادا لحصولها" ويورد أيضا مثالا مستشهدا به على ما لمسه من أطفال الاعاجم الذين عاشوا في بيئة عربية قائلا: "كأصاغر ابناء الاعاجم الذين يربون مع العرب قبل ان تستحكم عجمتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة لهم" (مقدمة: 735). وهذا الرأي ذهب اليه (Lenneberg. E., 1967:72f) الذي دعا فترة الطفولة التي يحصل فيها اتقان اللغة الثانية بفرضية الفترة الحرجة (Critical Period Hypothesis). وتتجلى هذه الحالة في محافظتنا العراقية كركوك حيث تجد معظم سكانها يتحدثون باللغات العربية والكردية والتركمانية والسريانية نسبة لتعدد القوميات فيها ويطلق على بعضهم تندرا "اربع موجات".

إن تأكيد ابن خلدون على مرحلة الطفولة في تعلم لغة ثانية أو أكثر ربما نابع من ملاحظته الدقيقة ودربته في التقاط الظواهر اللغوية في ان الجهاز الصوتي للطفل يكون لنا ومرنا في هذه المرحلة العمرية يجعله قادرا على استيعاب الاصوات المختلفة او المفقودة في لغته الام قبل ان ياخذ بالقولبة والغلظة. وهذا ما نستقرأه من قوله: "كأصاغر الاعاجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجمتهم" (مقدمة: 735). وقد أكدت الدراسات اللغوية التطبيقية هذه الحقيقة عند اشارتها الى ان البالغين يجدون صعوبة في نطق بعض الاصوات الاجنبية، على خلاف الاطفال الذي يستوعبونها (VLC, 2000:113). ومن هنا أيضا تأكيد ابن خلدون على هذه المرحلة العمرية في استحكام الملكات بقوله: "والمتعلمون لذلك في الصغر أشد استحكما لملكاتهم" (مقدمة: 734).

وعليه، ومن أجل صقل ملكات طلبتنا الدارسين للغات في جامعاتنا، لابد من الاهتمام بهذه المرحلة العمرية في تعليم طلبة الابتدائية شيئا من فقه اللغات الاجنبية المقارن، من ناحية الصوت خاصة، خشية غلظة جهازهم الصوتي عند البلوغ وظهور العجمة واللحن في لفظهم للاصوات الغربية على العربية. وهذا يتطلب أيضا استراتيجيات وتنسيقا بين وزارتي التربية ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي لغرض اعداد ناطقين باللغات الاجنبية يجيدونها دون لحن وعجمة.

ومن جانب آخر، وفي اطار ما تقدم، تناول الباحث في حلقة الثقافية هذه خلق المترجم الناجح بناء على ما استنبطه من رؤى ابن خلدون في اكتساب اللغة؛ فقد تناولت البحوث السابقة جوانب كثيرة مهمة في مواصفات المترجم وأهم الشروط التي يجب أن تتوافر فيه غافلة ما أبرزته التطبيقات العملية وما أفرزته من إخفاقات الكثير من المترجمين في إنجاز عملهم بما يتفق والمحافظة على روح النص والدقة في معرفة تفاصيل الثقافتين أو الثقافات المعنية بالترجمة. ولكي لا تبقى هذه المهمة مخدوشة، فقد عرض الباحث رؤى ابن خلدون في اكتساب اللغة، تمييزا عن صناعتها، يمكن أن تكون منهاج عمل استراتيجي وطني في خلق المترجمين الفوريين اعتمادا على اختيار مرحلة الطفولة والبيئة المعنية إضافة الى الاهتمام باللغة الام، موثقا هذا الاستنباط على الكثير من الشواهد والقرائن العلمية.